



وهرة

76

السر والسر السر والسر

علاء الدين طعيمة

نشر في مصر

دار النخلة



مغامرات عجيبة جدا

- سلسلة مليئة بالإثارة والتشويق
- أغرب الرحلات والمفارقة
- تجمع بين المتعة والعرف
- لا غنى عنها في الرحلات والبيت والموا

دار الدعوة

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفاكس: ٣٩٠١٩١٤ - ٣٩٠٧٩٩٨ / ٣

مغامرات عجيبه جداً

[٧٦]

جوهرة الزلزال الرهيب

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع القانوني: ٢٠٠٦/٢١٩٩٧م

الترقيم الدولي: 8 - 411 - 253 - 977

تحذير

لا يجوز تحويل هذه المغامرات إلى عمل سينمائي
أو تليفزيوني أو إذاعي أو مسرحي أو شرائط
فيديو أو (C.D) إلا بالاتفاق والتعاقد مع الناشر.

دار النخبة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

تليفون المؤلف: ٠١٢/٣٧٨٢٩٦٤ - ٠٣/٤٣٦٢٩٨٠

مغامرات مؤمنه

جوهرة الزلزال الرهيب

تأليف:

علاء الدين طعيمة

رسوم

عبد الرحمن بكر

دار النجوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مغامرات عجيبة جداً..

قمة الفرخ أن يعثر الإنسان على تاج أثرى عتيق
خال من الجواهر، ولكن تكون قمة الإثارة والمتعة
عندما تتابع وتقرأ مغامرات ذلك البطل وهو يسعى
للعثور على جواهر هذا التاج، إنه يسافر في رحلات
عجيبة عبر البحار والأنهار، فيتعرض للأخطار
والأهوال ويرى نماذج غريبة من البشر وعجائب من
الإنس والجن والأحياء والأموات، وفي كل مغامرة -
بعد العناء والصراع مع المكان والزمان- يفلح في
إضافة جوهرة جديدة إلى التاج.

كلا إذا دكت الأرض دكًا دكًا... إذا زلزلت الأرض
 زلزالها... قل ينسفها ربي نسفا... إذا رجت الأرض
 رجا... يوم ترجف الأرض والجبال... هذا هو تصوير
 القرآن الكريم لحالة الأرض بما عليها من جبال يوم
 القيامة: الزلزال... الدك... الرجف.. النسف.. ولا
 يخفى على كثير منا حالة الرعب والقلق الشديد إذا
 حدث وشعرنا بزلزال، كما أن الشعور بالزلزال يختلف
 من كائن لآخر ومن شخص لآخر.. فكم من أشخاص
 شعروا بهزة مع أن المحيطين بهم لا يدركونها.. ثم ما
 يلبث أن تذيع الأخبار نبأ حدوث زلزال في بلد بعيد
 بعداً يزيد على آلاف الكيلومترات.. وتشعر الحيوانات
 الأليفة وبعض البهائم بالزلزال قبل حدوثه بدقائق.. فإذا

فوجئت بأن القلط تجرى مجتمعة إلى صوب جهة بعينها.. وصهلت الخيول وفرت الكلاب فاعلم بأن زلزالاً وشيكاً سيأتى بعد دقائق.

وتسمع أرقاماً بعد حدوث الزلزال تقيس قوته بوحدة تسمى الريختر، وكلما زادت القوة زادت الخسائر فى الأرواح والمنشآت.

والزلزال لا يصف كتعبير أو ككلمة ما يحدث فى الأرض فقط من تحركات أو انزلاقات تسبب الهزة والتصدع، بل هى كلمة قد تصف أى شىء يصاب فجأة بخلل يزعزع أمنه واستقراره وقد تصف إنساناً أصابته مصيبة بأن زلزالاً أصاب قلبه وحطم أوصال عواطفه... أو تصف تجارة أو اقتصاداً منى بخسائر زلزلت دعائمه وتركته مثل مدينة أو قرية تهدمت... لذلك تجد كلمة

زلزال تعنى الرج الشديد والرجف العنيف والتحطيم، وقد يصاب البناء البشرى فى أمة من الأمم بزلزال الأخلاق والقيم والأعراف والتقاليد.. فلو كان أمر إعادة إعمار المدن فى حاجة بعد زلزال عنيف إلى وقت وجهد كبيرين وإلى مال وعتاد وإرادة فإن زلزال القيم والأعراف يحتاج لإعادة إعمار إلى مشقة وجهد كبيرين وعزيمة تفوق إعمار المدن وبناء الكبارى والمنشآت.

مرت الأرض عبر تاريخها الطويل بكوارث كونية، كالشهب التى ضربتها من الفضاء والبراكين التى انفجرت من أعماقها والزلازل التى غيرت معالم سطحها.

فقد قيل إن جميع قارات العالم فى زمن سحيق لم يكن يفصلها عن بعضها بحر ولا محيط... كانت

الأرض كتلة واحدة من اليابسة تسبح فى محيط هائل من الماء.

حدث زلزال رهيب... زلزال فاق كل ما يمكن للبشر أن يتخيله، صدع الأرض تصديعاً وكسرها تكسيراً... وكأنك تمسك بين يديك قطعة من كعك العيد وتضعها فى طبق ملىء باللبن ومن ثم تضربها ضربة بالملقعة فتتكسر وتتوزع أجزاءها بفعل الضربة فى جميع أنحاء طبق اللبن.

هكذا تحركت أجزاء الأرض وابتعدت عن بعضها البعض وحل الماء فى الفراغ الناشئ بين هذه الأجزاء... فلو نظرت على سبيل المثال إلى قارتى آسيا وأفريقيا.. ستجد أنك لو سحبت الماء من البحر الأحمر وضيققت المسافة لانطبقت الحدود تماماً، ولولا النحر البحرى الذى

يعمل على تآكل الشواطئ عبر الأزمان الطويلة لكانت حدود القارات منطبقة على بعضها تماما.

ويقول العلم إن الزلازل تحدث فى طبقة تسمى «القشرة الأرضية» وهى طبقة تغلف الأرض.. صخرية.. عبارة عن صفائح يعلو بعضها البعض عندما تنزلق صفيحة فوق الأخرى.. تحدث تحركاً أرضياً فى القشرة وعلى القشرة يعيش الناس.. وفيها يغرسون بيوتهم ونواطح السحاب.. ويزرعون سطحها ويرصفون فوقها الطرق ويقيمون أرجاء الحياة المختلفة، فإذا اهتزت وارتجت فهذا كفىل بتدمير كل ما تحويه هذه القشرة.. حسب قوة الهزة، وإذا أردت أن تجرب ذلك.. فقم بوضع أكواب وزجاجات فوق منضدة خفيفة ثم قم بهز المنضدة.. وسترى ما سيحدث، لكن الأمر يوم القيامة يختلف بالنسبة للقوة، لأن الله تعالى أراد

للأرض كلها أن تتزلزل.. حتى أنه من قوة وشدة هذا الزلزال تنفجر الجبال وتنسف.. ولأن الجبال هي أوتاد الأرض. أى هي التى تحافظ على توازن الأرض أثناء دورانها فى الفضاء فلا تميد ولا تنحرف.

فلما تزال وتنسف يختل النظام تماماً.. ويرتبك الأمر وتهتز الأرض ويزداد الزلزال.. حتى لا يبقى منها قلب كائن قادر على تحمل الأمر فيهلك. فنعوذ بالله تعالى من أهوال ذلك اليوم، ولا تنس أننا خلقنا من الأرض أى من ترابها.. ونتمى إليها، وكل ما يجرى عليها يصيبنا ويؤثر فينا.

ما علينا.. بل ما يهم الآن أيها القارئ العزيز.. يا من أشعر برغبة شديدة فى إسعادك وإمتاعك.. أن نبدأ فى المغامرة.

قصة مؤمن مع الزلزال الرهيب.. فهو مازال مستمراً
 فى البحث عن جواهر النجاح... ويخرج من بلاده
 وأوطانه سعياً خلف جوهرة جديدة فى كل مرة...
 لذلك أصبحت الأرض كلها وطناً له... يتقلب بين
 رهادها وشعابها وتفاجئه عجائبها بين الحين والآخر
 فيظل منبهراً مندهشاً.

فى هذه المغامرة... بدأ مؤمن يمسك الورقة والقلم
 ليدون بدلاً من أن يحكى مذكراته حسب نصيحة حصل
 عليها من أحد رفاقه ذات مرة... أن ما يمر به يستحق
 التدوين ليصبح تاريخاً فيما بعد يُستفاد منه.

ونحن سنجلس فوق القلم ونهتز مع الحروف
 والكلمات ونقرأ لحظة بلحظة ما يكتبه هذا المغامر
 الصغير، فتعال معى نركب القلم... قلم مؤمن.. !

أمرُ الآن مبتعداً جهة الغرب البعيد بصحراء تختلف
 فى شكلها عن الصحراء المصرية... أو الأفريقية...
 التربة هنا صحراء... الصحراء ليست قاحلة... بل
 تعيش فيها أنواع من نباتات الصبار الشائكة والكثير من
 الحشرات والزواحف... والشمس هنا حارقة.. والتباب
 والتلال الصلبة كثيرة... فلا يمكنك بسهولة أن ترى
 الأفق البعيد إلا إذا ارتقيت أعلى تل منها... أكاد أصل
 إلى بغيتى على كل حال... أنا قاصد فى نهاية الأمر
 ميناء سأعبر منه إلى قارة أخرى... ولكن أمامى كى
 أقطع هذه الصحراء يوماً آخر... أوشكت على
 الوصول.

ها أنا الآن والليل يدنو منى وتغرب الشمس رويدا
 رويدا فى حاجة للراحة... على عادتى الدائمة... أربط

الحصان فى جذع شجرة ثم أوقد نارا فى حطب وأحمل كثيراً من الرماد فأصنع به دائرة حولى أنا والحصان حتى لا تقترب منا الهوام الخطرة أو الحشرات المزعجة.

لا أدرى ما حدث عندما غابت الشمس، غير أن رأسى أصبحت ثقيلة وارتخى جفناى ورحت فى سبات عميق بسبب التعب والسفر وقلة الأمان فى الاغتراب عن الأهل والأحباب.

ماذا حدث بعد ذلك.. كنت نائماً عندما سمعت الحصان يصهل صهيلاً حاداً... هل كنت أحلم أم هى حقيقة؟ أحياناً من شدة التعب والغياب فى أعماق النوم يفقد المرء الشعور بالخطر وإن دنا منه... وقد يستسلم لكل مصيبة تجرى، لأنه فى النوم يكون أمره أقرب للموت منه إلى الحياة.

هل كانت حوافر الحصان تضرب الأرض بتلك القوة العنيفة المتتالية أم أن هناك حركة تحدث حولي.

لكن يخدعك النوم أحياناً... فمن يركب شيئاً ويسافر على متنه فترة طويلة... إذا نام بعد ذلك على فراش ثابت يظل شيء ما يخدعه ويهيئ له أن مازال راكباً ويشعر كأن جسده يهتز على إيقاع ما كان يركبه قبل النوم.. كنت راكباً حصاني منذ عدة أيام.. وللحصان نغمة تهتز كل قطعة من جسمك لها وهو يتهادى بك، ويزيد ذلك كلما جرى وركض.

هل كنت ضحية لهذا الشعور المخادع؟ أم أن الفراش يهتز تحتى.. ثم.. ثم أنا لم أكن نائماً على فراش... بل على الأرض.. ليس بينى وبين ترابها سوى بساط خفيف أحمله لهذا الغرض دائماً.

هذه الأشياء عامة يتناساها المرء عندما يستيقظ فى الصباح ويجد الدنيا كما هى .. الغرفة كما هى .. والأشياء من حوله متجمدة على الوضع الذى تركها عليه قبل غيابه فى الموتة الصغرى .. أى النوم.

لكن لا يمكن أن يتناسى شيئاً ولا أن يهمل شيئاً مما جرى بالليل، إذ نهض فى الصباح فلم يجد الأمور كما كانت على حالها قبل النوم .. أن تنهض وقد كنت فى البيت وحدك ومتأكد من أن أحداً لم يدخل بيتك أثناء نومك .. فوجدت الأشياء ليست فى مكانها .. تغيرت أوضاعها فتسأل نفسك: من الذى حركها .. من الذى سبب هذه الفوضى ؟ أنت واثق أنك كنت وحدك .. ولم يدخل إلى حجرتك إنسان .. فتعيد إلى ذهنك كل ما شعرت به أثناء نومك ..

لتدرك أن الأحاسيس كلها ليست خدعة.. وأن الأرض كلها حدث لها أمر مريع.

هذا ما رأيته في الصباح.. رأيت التلال ليست في مكانها.. والصخور في أماكن ليست كالتى كانت عليها قبل نومي.. وكل شيء مبعثر.. والأشجار محطمة.. والتلال الجافة قد نُسِفَتْ كأن هراوة عملاقة هوت عليهم الواحد تلو الآخر.

لم أمر بشيء مثل هذا من قبل... قمت أنظر لحصانى.. كان هادئًا لا شيء يعكر صفوه.. من الذى سبب كل هذه الفوضى.. أعدت لنفسى السؤال.. ولم يأت على خاطرى أبدا أن الأرض - وأنا نائم بالليل وحدى فى هذه البيداء - قد حدث لها.. زلزال.

أن ترى الأمر يحدث لك أو أمام عينيك يكون شيئًا مختلفًا عما إذا حكى لك أو كنت غائبًا عنه.

لم يؤثر فى الأمر ولا فى مشاعرى بقدر ما أثر فى
رحلتى كلها بعد ذلك... هذا الطريق مررت به عدة
مرات قبل ذلك فى مغامرات لى سابقة حتى حفظت
معالمه، وعليها كنت أسير وبها أهتدى حتى أصل إلى
الميناء.. بقى لى يوم واحد.. وسأصل الميناء قبيل
الغروب.. أو عند الظهر إذا أبلت بلاءً حسنًا فى قطع
الطريق.. وأسرعت.

عند العصر... بالرغم من أننى كنت أركض
بالحصان... شعور بداخلى يخبرنى أننى لا أسير على
هدى... لم أصل إلى الميناء... لم أر أى شىء يدل
على أن البحر قريب أو أن حياة ترقد خلف أى
تلال.. لم أصل إلى شىء... مازلت تائهاً فى
الصحراء.

يا إلهى.. كم أكره أن أضل طريقى فى
صحراء... كم عانيت من قبل فى مثل هذه
الأهوال... علىّ أن أنتظر حتى يدخل الليل ثم
أهتدى بالنجوم.. ما الذى جرى... أحاول أن أصل
حسب إحساسى الخاص.. لكنى لا أصل.. أجهدت
الحصان من كثرة الركض.

بالليل جلست أنتظر أن تسطع النجوم فى السماء
لأعرف طريقى... السماء ملبدة بغيوم.. حتى القمر لا
أراه... يا ربى.. طوال ساعات وأنا قابع مكانى كالعابد
ينتظر استجابة السماء.. لا شىء.

نمت مرة أخرى وليلة جديدة كُتِبَتْ لى فى
الصحراء... بالنهار عزمت على معرفة الحقيقة بالبحث
عن جبل عال... فوق قمته سأعرف أين أنا من الميناء

وهذه الطريقة تعتبر من الطرق المتعارف عليها لاستكشاف الطرق فى الصحراء.

بقيت أسير حتى إلى ما بعد الظهر.. إما الطريق وإما الجبل. لمحت فى نهاية الأفق خيالا كأنه ضباب.. أعلم أن هذا المشهد يعنى الجبل.. لكنه بعيد للغاية.. عذراً أيها الحصان.. أنت الذى سيتحمل عنى عناء هذا المشوار.

إلى ما بعد العصر وأنا أسعى للقاء هذا الجبل الشاهق الذى كلما اقتربت منه ابتعد عنى.. ونسيت رحلتى الأصلية، وأصبح كل هدفى أن أصل إلى الجبل.. فالجبال الشاهقة يمكنك من فوقها رؤية مساحة كبيرة من الأرض.. بان لى ذلك مرة عندما صعدت فوق جبل موسى بصحراء شبه جزيرة سيناء بمصر بلدى.. فرأيت البحر الأحمر يحيط سيناء بذراعيه إحاطة كاملة.

عند الغروب وصلت إلى سفحه... وهدأت نفسى
مع حماس جديد وأنا أنظر لقمته الشاهقة وأعد نفسى
لتسلقه من أجلها.

ولما قررت الراحة تحت حتى الصباح ليكون ضوء
النهار معيناً لى فى رحلتى إلى أعلى.. خلتُ صوتاً أتى
من بعيد.

لم أعر الأمر انتباهاً، خاصة وأن الأماكن التى أزورها
لأول مرة لها عادات لم ألقها من قبل.. فبعض الكهوف
إذا اقتحمتها الرياح أصدرت أصواتاً غريبة، كما أن
الوحوش التى تعمّر الصحراء لا بد أن تعبر عن نفسها.
زاد إحساسى بالصوت، الرياح تحمل نغمًا خاصًا.. ثم
تلقيه بعيداً عن أذنى... صمت الليل فجأة يلعب بوهج
صاحب لا يلبث أن ينطفئ ماذا هناك.. شيئاً فشيئاً..

أدركت أن هذه الأصوات.. إنما هي عزف موسيقى مع صخب.. هناك.. هناك خلف الجبل حياة.. أقسم على ذلك.. أشعر بالإنسان وكأنى أشم عرقه وأحس أنفاسه إذا كنت وحيداً هكذا.. يا لهذه المغامرات وما تحمله لى من مفاجآت.

حاولت النوم فلم أقدر.. فضولى العنيد لا يبرحنى لحظة فى عمرى... كل الناس يهاب الموت... إلا أنا.. بسبب هذا الفضول.. هذا الفضول أقوى شىء فى أنا.. فسوف أقوم وأبحث حول هذا الجبل الكبير لأرى من أى مكان يأتى الصوت.

سحبت حصانى ولم أركبه.. وسرت أدور حول الجبل... فإذا من خلفه يطل على منخفض كبير فى وسط سهله قرية أو مدينة.. لا أتبين جيداً.. سوى أن

أنوارها ومشاعلها الكثيرة تتوزع على مبان كثيرة عالية ومنبسطة بطريقة مريحة تبعث على البهجة وتشعرك أنك مقدم على حياة سعيدة.

مالى والجلب الآن؟ سأذهب إليهم وسيخبروننى عن الطريق الصحيح للميناء.. كما أننى سعيد الحظ أن أعرى على قرية أو مدينة.

هبطت معتليا الحصان واقتربت فإذا هى مدينة عامرة.. فيها حياة رغدة وأحوال الناس فيها تنم عن البهجة وراحة البال.

لم يمنعننى أو يسألنى أحد وأنا أعبر بوابة المدينة الكبيرة... الشوارع مكتظة بالناس.. المقاهى فوق ما أتخيل هنا وهناك.

أعبر الشوارع المضاءة بكثافة كأن أهلها من حبهـم
للنهار جعلوا المدينة نهـارا فى الليل.

إن هناك رغبة لديهم جعلت الزهور الأقحوانية
البيضاء والبنفسجية تزين كل جدار وشرفة ونافذة..
وأزهار بلدية بألوان زاهية تبدد السأم والملل فتحيل
الأجواء إلى نشاط مستمر.. شعرت أنهم يستمدون
المرح من هذه الأجواء.. فهم يجعلون شوارعهم
محبة بنظافة دقيقة وورود وزروع فى كل مكان، ولا
يتركـون جداراً بلا طلاء.. لكنى مع انبهارى بكل هذا
لاحظت أمرا محيرا... نساؤهم وبناتهم يفقن الرجال
والشباب عددا.. كلما مرت عيني بحى أرى النساء أو
البنات، ثم أتعب بحثاً عن رجل أو ثلاثة وسط ثلة من
النساء.

تعجبت وظنت نفسى لأول وهلة أن الحرب قد
تسحب من القرى والمدن عددا كبيرا من الشباب
والرجال.. لكن لا يبدو أن هؤلاء فى حرب... لم
يشغلنى الأمر كثيراً وأنا أبحث عن مكان أبيت فيه
وأسأل أهله عن طريقى إلى الميناء.

وصلت بلا قصد إلى شارع على ناصيته لافتة:
«فندق»، دخلت الفندق النظيف إلى حد الإعجاب..
حتى ارتاحت نفسى وأنا أرى مصحفاً بيد السيدة
صاحبة الفندق وكانت ترتدى حجاباً على رأسها.
- السلام عليكم سيدتى... هل أجد غرفة حتى الصباح.
- بكل سرور يا ولدى...

أخبرتني بسعر المبيت فى الغرفة وسعر وجبة العشاء
والفطور، وأعطتني تعليمات روتينية للمستخدم الجديد.

لما رأيت الفراش ولون الملاءة الأبيض المشدود
والوسادة الحريرية الوثيرة والمرتبة التى غُصتُ فيها لما
ألقيت جسدى عليها، ومع كل ما حولى من نظافة
تقرزت من نفسى وأنا أحمل عرق السفر وترابه
ووسخ الطريق وغباره.. دخلت الحمام وفى حوض
كبير من الخشب ملأته لى السيدة بالماء الدافئ
والصابون غسلت جسدى وهمومى وارتديت ملابس
نومى التى أحملها معى طوال الرحلة والتى لم
أستعملها من قبل. ولما وضعت نفسى على الفراش
نمتُ نومًا عجيبًا كنت أشعر بمدى قوته وسطوته قبل
الغياب عن الوعى بثوان.

متى نمت وكيف وهل شعرت تلك الليلة بزمان
نومى. أبدا فوجئت فى الصباح بالسيدة تقرع الباب

حاملة وجبة الفطور، وتمنيت لو تركتني نائماً.. لكنها عادة توقظ الناس فى الصباح للفطور وتدعهم بعد ذلك إما أن ينهضوا أو يعودوا للنوم.

الصباح الباكر جميل.. الهواء نظيف.. الشوارع الجميلة جذبتنى وأنا أحمل بيدى كوب اللبن لأخرج إلى الشرفة وأتفرج عليها.

كنت سعيداً بهذه المدينة، وتمنيت لو أن بلادنا تصبح فى بهائها وجمالها.. استندت إلى جدار الشرفة.. شعرت أن كوب اللبن يهتز بيدى.. لا أشعر بشيء، نظرت إلى الغرفة وأنا مازلت فى الشرفة.. أحسست أن كل شيء غير مستقر فى مكانه.. حتى الفراش أصبح يرتج مكانه.. ما هذا؟

كانت الشوارع خالية من الناس فلم يستيقظوا حتى هذه الساعة.. أما الشرفة فكانها تريد الانفصال عن المبنى.. لم أسمع صراخاً ولا استغاثة.. ثم هدأ كل شيء وكأن شيئاً لم يكن. السيدة صاحبة الفندق تشبه أُمى كثيراً وفى مثل عمرها.. دخلت مطعم الفندق وكانت تتابعنى بنظراتها من بعيد فى حين تعمل فى المطعم أربع بنات متبرجات، فلما وضعن أمامى ما لذ وطاب من طعام الغداء.. ابتسمت لشيهة أُمى فجاءت: أيضاً يـك أن أتناول الغداء معك؟

أبدأ بكل سرور.. هاهاها.. ظننت أن كل هذا الطعام لى وحدى. ضحكت السيدة وأكدت أنها ستطلب طعامها حالاً.

ظلت تسألنى عن عمري وكلما أكدت لها أننى
مازلت غلاما لم أبلغ الحلم بعدُ تقذفنى بنظرات تكذيب
مرحة.. حكيت لها عن بعض مغامراتى.. ومن الحين
والآخر تسألنى عن سنى، فلما ألت فى تكذيبى
واجهتها: لماذا سيدتى تكذبيننى.. ولماذا تسألين عن
عمري بهذه الطريقة؟

قالت وأمل يطل من عينيها: ما رأيك فى بناتى
الأربع.. هل هن جميلات؟
بالطبع.. ولكنهن سيدتى.. متبرجات بشكل ملفت .
هل أعجبتك واحدة؟

لماذا يا سيدتى.. ماذا هناك.. أنا لا أفهم.. وأريد
تناول طعامى بهدوء. معذرة يا ولدى.. فى الحقيقة لقد
ارتحت إليك وأريد أن أزوجك إحدى بناتى. انحشرت



اللقمة فى فمى وأنا أكتم الضحك.. ثم انفجرت
 ضاحكا وأقسمت لها بكل أيمان أننى صغير على مثل
 هذه الأمور.. فلما يأت منى غادرتنى حانقة..
 غادرت الفندق للسياحة فى المدينة التى أعجبتنى
 ومازالت تصرفات صاحبة الفندق على ذهنى بين
 الحين والآخر.. ومع ذلك فقد واجهت ما هو أعجب
 من ذلك.. كان الليل يحجبنى عن العيون أما فى النهار
 فقد قاسيت خلاله الأمرين.. كلما دخلت حانوتا أو
 جلست فى مقهى تحدث إلى رجل عن بناته.. وطلب
 منى أن أتزوج أحدهن.. بدأت أتوقف عن مناقشة
 الناس فى هذا الأمر.. اكتفيت بالأنصراف من كل
 مكان بلا حوار.. ماذا يرون فى؛ أم أننى بت لا أعرف

نفسى.. ما الذى يدفع الناس لهذا الجنون؟.. غلام لا يعرفونه من قبل.. وأتى على خوف بالليل من بلاد لا يعرفونها.. ثم كلما سألت أحدهم عن شىء حدثنى عن بناته وأراد بكل سهولة أن أصاهره.. يا لهذه المدينة.

بعد صلاة العصر حرصت أن أخرج من المسجد مسرعاً.. قابلنى سوق يبيع الملابس.. وفى الحقيقة ملابس هؤلاء الناس تتميز بأناقة جذابة.. جاءت فتاة نحوى وأنا أقف أمام سروال أعجبني.. كانت تنظر لى.. ثم جاءت ثانية وثالثة.. كنَّ فى الحقيقة فاقداً للحياء.. هل يبدو منظرى جذاباً إلى هذا الحد؟.. وما الذى أحمله ويجذب الناس لى ولا يوجد فى شباب المدينة ورجالها؟

أصبحن أكثر من خمس فتيات.. كلما تحركتُ
تحركن معي.. كلما سرتُ سرن خلفي.. وبدأ العدد
يزداد.. شعرت بفزع ممزوج بحسرة أن يكون هذا
حال بنات مسلمات.. وازعُ من قدمي جعلني
أجري.. فأخذن بالجري خلفي وأنا أكاد أصعق من
الدهشة.. هن جميلات بحق.. لكن أنا أصبحت
كالمجنون يجرى في الشوارع والبنات يتبعنه.. لا بد
أن في منظرى شيئاً يضحكهن مني.. دخلت الفندق
وأغلقت على نفسي غرفتي وأسهرت إلى النافذة
فرأيتهن متجمعات أمام باب الفندق وخرجت لهن
السيدة الوقور وتكلمت مع بعضهن فانصرفن
أسفات. لم أشأ الخروج من الغرفة.. وقفت أمام المرأة
ساعة.. أفحص وجهي وأتفحص هيئتي.. ماذا

هناك؟ .. ماذا بى ؟ .. أنا هو، أنا لم أزد أو أنقص شيئاً
يا خلق الله...!!

جلستُ على فراشى حتى الليل أفكر فيما يحدث...
حتى دخلت السيدة بطعام العشاء فادعيت النوم حتى لا
تثير حديث الصباح المزعج.. وضعتُ الطعام
وانصرفت.. جلستُ أتناول عشاءى وبين الحين والآخر
تصدر منى ضحكة بسبب جنون أهل هذه المدينة. وبعد
العشاء حدثت هزة أخرى.. كانت أقوى من الهزة
الصباحية.. ترجرج الفندق كله.. حتى أن صينية
الأطباق وقعت من فوق المقعد.. جريت وأنا فى قلق
وتوتر لأشارك الناس فجعتهم هذه.. لم أسمع صراخاً
ولا أى شىء حتى توقف الهز وكان شيئاً لم يكن. يبدو
أن هؤلاء الناس قد اعتادوا هذه الهزات فلم يعودوا

يأبهون لها.. يا لهم من شجعان.. لو أن هذه مقدمات
زالزال عظيم هائل فأين يذهبون؟

لم يكن لهذه المدينة سوى جامع واحد كبير يحتفظ
بالمصلين دائماً.. خرجت في الفجر وصليت، بينما لم
يرفع الناس عيونهم عني.. فأنصرفت مسرعاً.

رجعت إلى الفندق للذكر والقرآن، ثم عند بشائر
الصبح نمت مرة أخرى.. ثم قمت قبيل الظهر.. وجدت
فطوري في الغرفة.. تناولته وأنا عازم على الإسراع
للحاق بصلاة الظهر في الجامع ثم الجلوس إلى إمام
هؤلاء الناس في المسجد لأفهم ما يحدث. حاول كثير
من الرجال بعد الصلاة التودد لي وكانوا في غاية اللطف
والأدب، ودعاني أكثر من عشرين رجلاً لتناول الغداء
والعشاء في منزله.. ولأنني أعرف السر الذي لا أعرف



له سرّاً كنت أعتذر بذوق وأدب.. إلى أن دعاني إمام
الجامع نفسه بتناول الغداء معه سألته على الفور: هل
لديك أولاد وبنات.

ابتسم وقال وعيناه تفهماني جيداً:

لا تخف.. لا بد أن تكون مقتنعاً بالأمر قبل أن تقبل
عليه. هممت بشد شعر رأسي فتماسكت.. ولو أن
رغبة بداخلي حذرتني من المكوث يوماً آخر في هذه
المدينة، ومع ذلك أردت فقط - بدافع فضولي - أن أفهم
في بيت إمام الجامع وهو السيد عبد القادر.. قدم لنا
الغداء ثلاث بنات محتشمات لا يخفين نظرات ملحة..
طلبت منه أن يغلق الباب فتعجب.. ولكني أثرت
الانفراد به:



مغامرات محببة جداً

- أخبرنى وإلا ما تناولت لقمة واحدة ياسيد
عبدالقادر... ما الذى يحدث فى هذه المدينة؟.. لم أعد
أعرف للنوم ولا للأكل طعاماً.

- قبل أى شئ أحب أن أبدى أعجابى بك.. ولولا
أنك أقسمت بعدم بلوغك الحلم بعد ما صدقت..
ملامحك وقوة بنيانك وخبرتك العريضة تقول إنك
شاب بالغ فتى.

سيدى.. بالله عليك.. أريد أن أفهم.

تنهد الرجل وكان يرفع المعلقة لفمه فأنزلها ولم يأكل
وقال بحزن عميق:

- نحن مسلمون هنا والحمد لله.. ومدينتنا لها موارد
ونعم أنعمها الله تعالى علينا جعلتنا لا نعرف الفقر.. بل
نعيش كما رأيت فى رغد وترف.. والحمد لله.. فما

البلاء إذا يا مؤمن؟.. البلاء العجيب أن مدينتنا منذ ما يقارب ربع قرن من الزمان وأرحام الأمهات لا تلد إلا البنات.. أما الأولاد فهم نادرون..

لاحظت هذا يا سيدى أول ما قدمتُ إلى هنا.. تابع يا سيدى.

تنهد الرجل ثانية ثم قال: أقرب بلد إلينا تبعد عنا آلاف الأميال.. نحن كأننا معزولون عن الدنيا.. كل يوم تلد النساء بنات.. والبنات يكبرن ويزيد عددهن.. بينما يقل عدد الشباب.. مع أن عدد الرجال عامة كبير.. لكن عدد البنات الآن ضعف عدد الرجال عموماً كشباب وكهول. بدأت أدرك ما يرمى إليه الرجل.. وأصبح كل ما جرى لى فى المدينة ومنذ دخلتها قد زال عنه الغموض وبتُ مشفقاً عليها:

- أخبرني يا ولدي.. لمن نزوج بناتنا؟.. أصبحن كما رأيت تبحث الواحدة منهن بنفسها عن من يتزوجها.. وأصبحتُ مع كل المواعظ والدروس والخطب غير قادر على منعهن من التنافس فيما بينهن.. يتبرجن.. وتجد الواحدة منهن على حال يخالف حال المسلمة في بلادكم.. ولم أعد أملك قدرة يا مؤمن على فعل شيء.. وها أنت كما رأيت.. لدى بنات لا أجد شباباً يتزوجهن. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. هذا والله من علامات اقتراب الساعة... وهل هناك حلول أخرى لهذه المصيبة يا سيدي؟

فكّر بمعنى يا ولدي.. أسرة تبیت على جمر من الهموم.. عدد العوانس يا مؤمن تجاوز الحد ولا من معيب..

- المجيب.. هو الله يا سيدى.

استمرت مناقشتنا بينما تناولنا الطعام، وهممت
بالانصراف شاكرًا له دعوته الطيبة، فتذكرت أمر الهزة
التي تحدث للمدينة فسألته عنها بشغف:

- لا ندرى يا مؤمن عنها أى شىء... هذا زلزال يزورنا
بين الحين والآخر..

- زلزال؟

- نعم.. لكن الناس من كثرة حدوثه لم يعودوا يهتمون
له... مع... مع أننى بدأت أشعر أن قوته تزيد يوميًا
بعد يوم.. وهذا ما بات يقلقنى.

لم نجد ما نتحدث فيه بعد ذلك، سوى أن ودعته
وانصرفت وفى قلبى هم كبير وفى عقلى سؤال أصبح
يتردد ملحًا:

- هل نخشى فى هذه المدينة من زلزال الأرض أم من زلزال آخر قد يكون أشد فتكاً من الأول... زلزال العنوسة؟

رجعت إلى الفندق وقد تغيرت نظرتى للأمور كلها... هذه الأحوال لم تشغل بالى من قبل، فأننا بعدُ مازلت صغيراً ولم يشغل ذهنى التفكير فى أحوال الكبار البالغين... لكن بعدما سمعت ورأيت.. أجد أن هذه المشكلة تهم الجميع ويجب أن أنبه لها الناس كباراً أو صغاراً... ارتقيت فراشى واستلقيت وقد فارق النوم عينى، وبقيت شاخصاً للسقف أفكر وأفكر... لا أدرى متى نمت عندما استيقظت على أذان الفجر.... صليت فى المسجد وظل الناس على ما هم عليه حتى قام الإمام السيد عبد القادر وأخبرهم بأننى ضيف و غلام، فلما فهموا الأمر تركونى وشأنى... وفى غرفتى عدت أذكر الله ثم بدأت أقرأ القرآن كعادتى كل صباح... وأستغفر

الله العظيم.. كنت أقرأ وذهنى غافل عما أقرأ انشغالا بهذه المشكلة، فلما تنبهت لنفسي ولتها على التقصير إذا أنا بآية: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] قمت واقفاً والمصحف فى يدى...
أليس هذا هو الحل؟ نعم.. هو الحل... سبحان الله.. لم يدع القرآن مشكلة فى حياة المسلمين الأولين أو الآخرين إلا وأعطى الناس حلاً لها.

.. سبحان الله... أليس هذا حلاً؟... لماذا لا يطبق هنا؟
عدت أخرج إلى المسجد فى هذه الساعة المبكرة ولحقت بالسيد عبد القادر قبل أن يعود لبيته واستبقيته فى المسجد:
- يا شيخنا... أحل الإسلام للرجال الزواج بأكثر من امرأة... فتنهذ بحرقة وقال وهو ينظر للأرض:
- العُرف فى مدينتنا يا مؤمن لا يقر بأكثر من زوجة للرجل الواحد.

- العُرف إذا تعارض مع الشرع فلا اعتراف به يا شيخنا...
- نساؤنا يا ولدى... كل امرأة فى مدينتنا لها صوت فى بيتها، وكل زوجة تضغط على زوجها وتهدهه وتستحوذ عليه حتى لا يفعل ذلك... لذلك لا أقول من النادر... بل من المستحيل أن تجد رجلاً هنا له زوجتان.
- يا إلهى... هذا التشريع الإلهى يا سيدى إنما جعل فى الأصل لزمن وظروف كالتى تمر بها مدينتكم.
- أخبرنى رجل من أهل العلم وأنا شاب أن كل المجتمع الإسلامى وغير الإسلامى بعد القرن الخامس عشر الهجرى سيعانى هذه المشكلة، وسيقف المسلمون دون أن يفعلوا شيئاً... وسيسأل الله كل رجل عن نساء وبنات المسلمين.
- إذا لماذا لا نطبق شرع الله... عليك كإمام مسجد أن تشرح للناس.

- فعلتها أكثر من مرة فأغضبتُ النساء.
- سبحان الله... هل كل امرأة تمتلك زوجها؟... لمن القوامة فى مدينتكم.. للرجل أم للمرأة؟
- نساؤنا لهن سطوة على الرجال... ورجالنا عاطفيون.
- والأمر الأعجب أن هذه مدينة متحضرة ثرية بالمال ويمكن للرجل أن يعول أكثر من زوجة.
- كنت متحمساً لحديثي ومنفعلاً به بينما لاحظت أن السيد عبد القادر يضع كلتا يديه على الأرض التى يجلس عليها ليتماسك... كان زلزالاً قوياً هذه المرة، لكنى مع ذلك.. لم أشعر به:
- يبدو أن الزلزال سيهدم المدينة على من فيها.
- اذكر الله يا شيخنا فهو الحافظ من كل مصيبة... مع أنكم هنا.. تعطلون شرعه الذى أنزله لتحيا به.

انتهت المناقشة بلا جدوى، وعدت إلى الفندق فوجدت السيدة الوقور قد وضعت فراشاً إضافياً فى غرفتى فسألتها عن السبب.. فأخبرتني أن الفندق مزدحم لقربه من مزار سياحى... وأن هناك نزيراً غريباً سيشاركنى الغرفة.

جاء بعد قليل شاب فتى بالغ يافع قوى... ما أدهشنى أنه عربى مثلى. رحبت به وكان هو الآخر فى دهشة مما يحدث فى المدينة.. فأخبرته بالموضوع كله، فضحك ثم حزن ثم أصبح واقعاً معى فى فخ المشكلة، ووجدت منه صدقاً فى محاولته التفكير لحل هذه القضية... وما أذهلنى أنه قد جاء إلى هذه المدينة ليستقر فيها بما لديه من خبرة فى التنقيب عن المعادن... وأنه سيحصل على رخصة بالبحث عن الذهب فى الصحراء المحيطة بالمدينة: - كثير من الناس يا مؤمن يرون فى تعدد الزوجات عيباً وقسوة.

- من علامات الساعة يا مهاب أن يكون عدد النساء أكبر عن عدد الرجال حتى يصبح للقيّم الواحد أربعون امرأة... من سيعول هؤلاء النساء.

- أنا معك يا مؤمن... سألتني رجل ملحد ذات يوم عن حكمة تعدد الزوجات في الإسلام، ثم ذكر مسألة ملك اليمين..

- وماذا أخبرته.

- في الحقيقة وفي بادئ الأمر كنت لا أعرف... لكن أعرف جيداً أن الله عليم بعباده وحكيم في شرعه وعدلٌ لا يظلم أحداً فهداني للرد عليه.. وتصورت أن العالم في زمن ما سيمر بحروب أو كوارث.. أو مصائب تحصد الرجال وتبقى النساء... فتصبح الشوارع مكتظة بنساء لا يجدن من ينفق عليهن... فتضطر الواحدة لبيع نفسها للشيطان من أجل لقمة العيش.. كذلك يكون من الأصوب ومن الأسلم لها

وللمجتمع أن يتولى أمرها رجل بالمعروف. وأيضاً هنالك أسباب كثيرة لحكمة تعدد الزوجات..

- بوركت يا مهاب... نعم الرد.... الإسلام راعى المجتمع الإسلامى حتى فى أحلك الظروف وقد وفر له ما يُبقى سلامته وتماسكه.

- يا مؤمن... أنا سأستقر فى هذه المدينة... ولا بد أن أتزوج منها... ولن أقف مكتوف اليدين أمام مشكلتها الرهيبة.

- ماذا ستفعل إذا؟!!

- سأقوم بدورى فى تحصين الفتيات...

- ستتزوج بأكثر من امرأة؟... لن يرضى أحد هنا بذلك.

استمرت مناقشتنا وقتاً طويلاً... كان مهاب الشاب السورى برغم حرصه على بناء مشروعه الكبير فى منجم الذهب لا يهمل مشكلة هذه المدينة ويرى أن عليه المساهمة فى حلها.

أما أنا ففي اليوم التالي خرجت من الفندق على ضجيج خفيف في الشارع.. وفوجئت بأعداد كبيرة من الفتيات يخرجن من كل صوب ويتجمعن في الشارع الكبير إلى الميدان الرئيسى بالمدينة دون توقف. كن يتحركن ويسرن في آلية غريبة ومن الميدان يتجهن إلى جهة لم أطرقها من قبل، غرب المدينة.. ثم إلى خارجها.

المشهد يشبه جنازة عظيمة... آلاف الفتيات يرتدين ملابس بيضاء تشبه إلى حد كبير فستان العرس.. لكن يعلو الحزن وجوههن... إلى أين السير وماذا يحدث... هل أعود لأوقظ مهلب النائم فى الفندق أم أتابع السير... تفوق فضولى... ومشيت من بعيد أرقب المشهد... النساء والرجال والأطفال يقفون فى الشرفات وعلى النواصى ويودعون بناتهم فى مشهد غريب.

خرجت الجموع الكبيرة من المدينة بحيث لم أتمكن من رؤية أول الجنازة المهيبة... تابعت الأمر من بعيد فلم أتمكن من مشاهدتهن جيداً... تسلقت جزءاً من جبل حتى تبين لى الأمر جلياً.

هناك جسر طويل وكبير عبارة عن لسان صخرى ناتئ عن جبل طوله كبير مع أنه معلق فى الهواء على ارتفاع كبير حتى أن الضباب يحجب المسافة الرهيبة أسفل منه... تصورت للحظة أنهم سيلقون بأنفسهم متحرات من فوق هذا الجسر المخيف... لكن تجمعن حتى استوعبن الجسر.. كنت خائفاً عليهن... لماذا يفعلن ذلك؟

وفجأة جلسن كلهن ماعدا واحدة فى مقدمة الجسر... لو مدت قدمها لسقطت فى قاع لا نهاية له. واجهت هذه القائدة أخواتها ثم انبعثت تدعو الله كى يفرج كربهن ويزيح عنهن شبح العنوسة الذى يهدد كل بيت فى القرية.



كانت كلماتها عفوية... لم تحمل وزناً ولا موسيقى... لكنها لم ترجو في الحقيقة فناً ولا أدباً... أرادت فقط التعبير عن حزن وألم، أرادت أن أصرخ في وجه أهل هذه القرية... نساء أنانيات ورجال لا يملكون قرارهم.. أرادت أن تظهر فداحة المشكلة.

كل ما كنت أخشاه في تلك اللحظات الدامعة الحزينة أن تحدث الهزة الأرضية وهن على «جسر المدينة» الذي تتجمع عليه العوانس كل أسبوع للدعاء مع أن الزلزال يحدث في أى وقت.

مرت الأيام تلو الأيام... بدأ مهاب يستشيرنى فى مشروعه وطلب منى أن أشاركه فى ذلك المشروع حتى أقرر الرحيل عن المدينة.

ذهبت كى أزور الشيخ عبد القادر فى بيته فوجدته على غير عادته شارد منهك الفكر...!!

ورحب بى وفى عينيه قلق:

- ماذا بك يا شيخنا... مالى أراك على غير عادتك..

هل هناك شىء يؤرقك؟

- نعم يا مؤمن لقد قررت أن أبدأ بنفسى ولا أدعو

الناس لشىء لا أفعله أنا... سأتزوج يا مؤمن زوجة

ثانية.. لكن زوجتى ترفض. تحدثت معه كثيراً ثم

طلب منى محاولة إقناعها واستقبلتنى ببرود:

- سيترك بيته وبناته من أجل أخرى.

- سيدتى... مديتكم فى محنة... أيعجبك هذا الكم

من العوانس فى مديتكم.

- لا.. لا يعجبنى... لكن ما من زوجة ترضى بذلك

لنفسها.

- وبناتك... لديك ثلاث بنات لن يتزوجن.

- وما شأن الأمر بيناتى.

- لو أن كل زوجة تشعر بالمسئولية تجاه المجتمع الذى
 تحيا فيه كما تشعر بالغيرة والأنانية... لو أنها سمحت
 بذلك... وتزوج زوجها من فتاة لا تجد زوجاً...
 فسيأتى أيضاً من يتزوج ابنتها أو أختها أو ابنة خالها
 العانس.. أليس كذلك...

- مؤمن... أنت صغير ولا تدرك الأمر.

- شرع الله لنا هذا يا سيدتى...

- إن فى هذا الشرع النجاة دائماً من المصائب التى تحيق
 بنا... فى الإسلام نجد الحل يا سيدتى... الإسلام هو
 الحل..

- غلبتنى يا مؤمن بكلامك... أنا موافقة من أجل
 بناتى.. عسى إن سمحت للشيخ عبد القادر بذلك أن
 يأتى آخرون يتزوجون بناتى.

- جزاك الله خيراً عن أهل المدينة يا سيدتى... هكذا يكون الحل فى الإسلام... الحل يكون بتفعيل وحسن استخدام المسلمين لتعاليمه وشرائعه المتينة.. أستاذك... سأذهب لأخبر السيد عبد القادر بموافقتك وأنتك لن تندمى بعد ذلك أبداً.

تمنيت لو كانت المسألة هينة مع كل نساء المدينة... لكن الأمور أصعب من قدرتى على العمل وحدى. قررت أن أذهب لمهاب بعد أن أخبرت السيد عبد القادر بموافقة زوجته، ولم يصدقنى فى بادئ الأمر... وعندما تأكد مما أخبرته به أسرع وذهب إلى زوجته وقبل رأسها وشكرها على حسن امثالها لأمر الله.

وبعد عدة أيام تم زواجه الثانى من فتاة صالحة ذات دين من فتيات المدينة... وانطلقت الزغاريد من بيت كان يعيش عليه الحزن... وتكون بيت مسلم جديد يفاخر بنسل النبى ﷺ يوم القيامة الأمم كلها:

- مهاب... كيف حال مشروعك... هل بدأت الحفر في المنجم.

- لا.... أنتظر أن تأتى معى... أنت فى الحقيقة على ذراية بالأرض وطبيعتها أكثر منى... والمكان الذى ستشير إليه سأفتح منه باباً للمنجم على الفور.

- هناك أمل يا مهاب... الليلة تزوج السيد عبد القادر من فتاة تناسبه كانت قد فقدت الأمل فى الزواج.

- رائع... بارك الله فيك يا مؤمن... قلبى يحدثنى أن لك يداً فى هذا الحدث السعيد.

- أريد أن تساعدنى يا مهاب... تغيير تقاليد المجتمع ليس بالأمر الهين.

- أنا معك... فقط ساعدنى أنت أولاً... ثم إذا افتتحت المنجم يمكننى التفرغ قليلاً لمساعدتك.

- وهو كذلك.

فى الصباح الباكر خرجتُ مع مهاب من المدينة -
كانت دراسته للمكان ترشده أن يبحث عن الذهب فى
بطن أحد الجبال العتيدة.. احتاجنى فقط كى أرشده
لأسهل مكان يمكنه الحفر فيه... ولكن ليس هذا ما كان
يشغلنى... بل الطريق الذى لم أطرقه بعد فى شرق
المدينة... حيث خرجنا منها وتحركنا فى صحراء يعلو
سماءها ضباب دائم... ولأننى لا أفقد الاتجاهات
بسهولة.. فقد أصبحت على يقين أننى ومهbab نمشى
تحت جسر المدينة أو قريباً منه... وفوجئت بصدع رهيب
يشق الأرض كأنه يشطرها نصفين:

- فى بداية الأمر دهشت لهذا الصدع يا مؤمن... لكننى
اعتدت عليه.

- صدع رهيب وقاعه عميق مظلم...

- أتعرف يا مؤمن أن هذا الصدع من أهم، بل هو السبب الوحيد في الهزات الأرضية التي تحدث للمدينة.

- يا إلهي... أحق ما تقول؟

وكلما حدثت الهزات ازداد طول الصدع... وقد يحدث زلزالاً كبيراً.

الصدع هو شق في الأرض.. أو أحب أن أسميه شرخ الأرض... فعندما تمسك ببسكوته فتكسرها من النصف بغير أن ينفصل النصفان فهو الشرخ والتصدع...

ذهبت مع مهاب وحددنا مكان بدء حفر المنجم وصلينا ركعتين قضاء الحاجة حتى ينجح الأمر... وبدأ العمال في الحفر حتى غابت الشمس.. عدنا بالليل للفندق، وما إن جلس كل واحد فوق فراشه حتى شعرنا بهزة عيفة... أكبر من الهزات السابقة في قوتها... ثم ما لبثت أن هدأت.

فى عمق الليل قمنا على هزة أخرى كانت تحرك
السريـر من تحت كل واحد منا واستمرت وقتاً ملحوظاً،
وقال مهـاب وهو يغالب النوم:

- آخر ليلة لى فى الفندق.. بل فى المدينة.

- لماذا يا مهـاب بالله عليك؟

- هذه الهزات نذير سوء وقلبى لا يحدثنى بخير.

لم أتمكن من النوم مرة أخرى حتى الصباح... وبعد
صلاة الظهر فى المسجد أذن لى عبد القادر فى الحديث
إلى الناس وتحذيرهم:

- إخوانى... الزلزال الكبير قادم لا محالة... وأرى أن
نتخذ الحيلة له وأن نعمل قدر استطاعتنا على الحد
من خسائره.. وخصوصاً الأرواح. شعر الناس بالخطر
لأن الهزات باتت أعنف... وقررنا فى النهاية إخراج
الناس من المدينة.

وكان على الرجال التعاون في إخراج النساء
والأطفال إلى الصحراء في العراء...
وعند العصر حدث الأمر الرهيب..
كانت هزة أرضية رهيبة... استمرت وقتاً طويلاً..
والمدينة تعج بالرجال دون النساء... الرج والرجف
عنيف قاتل.

كنت مع مهاب نشرف على الأعمال في المنجم...
وصعدنا فوق الجبل نشاهد المدينة الجميلة وهي تتصدع وتهتز
وتنهار مبانيها... كان الرجال يفرون منها قدر المستطاع.
شعرنا بالزلازل ونحن نبتعد عن المدينة مسافة كبيرة
ونسرع صراخ النساء والأطفال يكون مدينتهم
ورجالهم الأشداء.

لم أتمكن من عمل شيء في تلك اللحظة، سوى أن
أشاهد ما يحدث... كأن المدينة على نسيج غربال كبير..

غربال يهتز بتوتر حاد فيهدم هياكل المدينة بنيت من الرمل على شاطئ البحر.

كل شيء يُنسَف.. تسقط السقوف.. تتحطم الأعمدة.. تنهار الكبارى وتهلك الأزهار... سقطت الشرفات والجدران على آلاف من الرجال الذين كانوا يحاولون الهرب من القدر المحتوم.

أفلح العديد منهم فى تلافى الخطر... أصعب شيء أن تقف على أرض غير ثابتة.. فهذا هو الخطر بعينه:

- مؤمن... ما العمل؟
- لا أدري يا مهاب لا أدري.
- هل نقف هكذا نتفرج على المدينة وهى تنهار.
- لقد حذرناهم يا مهاب... لكنهم تلكأوا حتى حدث الزلزال.
- يجب أن نفعل شيئاً.

- ماذا يمكننا فعله يا مهاب؟ ... إنه جزاء منع تمكين

شرع الله فى الأرض.

- هل تقصد...؟

- نعم أقصد... الجبل يهتز بنا... سيتحطم.

نزلنا نجرى من الجبل وكل الأرض أصبحت تهتز...

تسكت لحظة وتهدا ثم تعاود الرج والتدمير.. هناك قوى

تريد إهلاك المدينة كلها.

جريت مع مهاب نحو الناجين الذين من حرصهم

على إنقاذ ذويهم أرادوا الرجوع إليها.. منعناهم.. إذ أن

الزلازال كان فظيماً.

عيون الماء تنفجر... أطلال المدينة مازالت تهتز يمينا

ويساراً بقوة عجيبة.

نظرت للصعد من بعيد فإذا به يزداد... وإذا الارتجاج

عنده أقوى من أى مكان آخر:

- مهاب... أنت على حق يا مهاب... الصدع هو
السبب فى الزلزال.

- طالما هو موجود.. فلن تهدأ الزلازل أبداً عن زيارة
هؤلاء التعساء.

- بعد الزلزال.. وإذا كتب الله لنا النجاة ينبغى أن نردم
هذا الصدع.

- هل تهذى يا مؤمن؟... هذا أمر مستحيل يا صديقى...
العمق رهيب والطول واسع.

كنا نتحدث بينما الصوت يرتج فى حلقينا... لم نجد
شيئاً نخدع به أنفسنا ليصرفنا عن النظر إلى الهلاك
والدمار بينما يحدث أمام أعين الجميع.

نظرت خلفى لهؤلاء النسوة... وليس معهن إلا عدد
قليل من الشباب والرجال.. وقلت فى نفسى منْ لهؤلاء
إلا الله.

وتذكرت أن الله تعالى يدبر قبل أن يبلى ... هذا
الزلال ... وسكن إلى وقت طويل ... حتى تشجع
الناس على الحركة والقيام نحو المدينة المنكوبة.

أما أنا ومهاب فأثرنا أن نذهب ناحية الصدع لنرى
هول الموقف ... كان الصدع أوسع .. وألقى مهاب فيه
حجرًا فبقينا ننتظر حتى نسمع صوت ارتطامه بالقاع
فنحدد العمق بالتقريب ... لكننا لم نسمع أى شىء ... لا
ارتظام ولا غيره ... وأدركنا أن العمق قد يصل إلى باطن
الأرض خاصة وأن حرارة الصدع كانت أعلى بقليل من
الجو المحيط به:

- تمنيت لو منعنا هذا الصدع من تحريك الأرض
بقشرتها هنا.

- وأنا أيضًا أتمنى ذلك يا مهاب ... لكنك أخبرتنى
باستحالة ذلك.



- أرى... أرى لو ألقينا شيئاً يمكن حشره بين جنبى الصدع لمنعنا حركته بدون أن نردمه... لأن ردمه فى الأصل مستحيل.

- شىء نحشره يا مهاب... أنت فى حاجة إلى جبل.
ساد الصمت بيننا ونظرنا نحو المدينة ورأينا الناجين وهم يطوفون كالمجانين بها... كلٌ حول بيته الذى عاد ردمًا من تراب وحجارة. كانوا ينوحون ويبكون وكأن المدينة قد وقعت فى الأصل على رءوسهن. لكننى مع ذلك كنت أفكر فى أمر الصدع.

أخذت عبارتى الأخيرة تتردد بشكل مستمر وملح فى عقلى حتى عرفت أننى أبحث عن حل... أنت فى حاجة إلى جبل... أنت فى حاجة إلى جبل.

شعرت أن الحل بين يدى ولا أراه... شىء ما يناسبنى.. لكن ما هو.. ما هو.. اهدنى يا ربى...

فوجئت بنفسى أنظر إلى السماء حيث الضباب الذى
يحجب عنى الجسر الرهيب.. جسر المدينة... كان
يبدون أسفل كشبح لا يبين.. صرخت فى مهاب:
- مهاب... مهاب... وجدتها يا مهاب...

- ماذا؟

- الجبل الذى سنحشره فى الصدع فلا يسمح له بإثارة
هز القشرة الأرضية... إنه الجسر..
- الجسر؟... أى جسر.

- جسر المدينة يا مهاب... يجب أن نكسره... فيسقط
فى الصدع.

- أرنى هذا الجسر يا مؤمن... هيا بنا.

صعدت معه نحو المدينة المنكوبة ومررنا وسط
الحرائق والدخان والغبار وبين أطلال وأسمال... حتى
وصلنا إلى أصل الجسر وشهق مهاب:

- معك حق يا مؤمن... إنه لسان طويل... ولو سقط
لوقع منحشراً فى الصدع فأوقف الخل فى الأرض.
- أرايت؟!... كيف نكسره إذًا.
- لا أدري... إنه كبير ضخيم يحتاج إلى آلاف العمال
وقد لا ينكسر.
- وقفنا نفكر أنا وهو... وكأن على رأسينا الطير... ثم
لاحت لى فكرة مجنونة:
- مهاب... لدى من يكسر هذا الجسر.
- دائماً أتوقع منك المفاجآت يا مؤمن... أين وكيف.
- تعال معى...
- كان أهل المدينة وأكثرهم النساء والفتيات فى حاجة
إلى من يرشدهم ويضع لهم علاجاً لجرحهم العميق.
- ذهبنا نحو المسجد... فوجدناه قد تحطم تماماً ولم يتبق منه
إلا القبلة والمنبر... صعدت إلى المنبر وناديت مع مهاب على
الناس فتجمعوا شيئاً فشيئاً حتى أصبح أمامى جمع عظيم:

- يا أهل المدينة المنكوبة... نحمد الله تعالى أن نجاكم ونجانا من هذا البلاء ونترحم على موتانا... لا بد من تنظيم العمل وتحديد الهدف... العمل على إعادة بناء المدينة وتحكيم شرع الله فيها والهدف هو حسنة الله تعالى فى الدنيا والآخرة.... علينا أن ندفن موتانا.. شهداء هذه الكارثة... وبعد ذلك سنجتمع مرة أخرى ونرسم خطة حياة جديدة... أسرعنا وجمعنا الجثث وأقمنا جنازة وصلينا على الشهداء ثم دفنهم... وجاء الليل البهيم... لا ينير سماء المدينة المظلم سوى الحرائق المندلعة هنا وهناك... تجمع الكل حولى مرة أخرى ووقف مهاب بجانبى والرياح تهب من كل صوب:

- أيها الناس... لن يقر لهذه المدينة قرار إلا بكسر جسر الحسرات ونحتاج إلى قوتكم معنا... هذا الجسر سيمنع الزلازل والهزات. رأيت الفتيات أشد حماسة من الجميع... فعولت على ذلك:

- أعداد النساء أكثر بكثير من أعداد الرجال... ولا يعقل أن نترك هؤلاء النساء بلا بيت أو رجل يعولهن.. كذلك علينا تطبيق شرع الله في تعدد الزوجات.

وكان الناس قد عرفوا السر في الكارثة.. فلم يعترض أحد.. بل إن الفتيات حملن المعاول وكن أول من ذهب للجسر، وبرغبة كاسحة.. تكتلن عليه حتى فوجئ الجميع به ينكسر كقطعة من السكر... وسقط محشوراً في أصل الصدع فتأكد للجميع وداع الزلزال للأبد.

لم أترك المدينة... بل ساهمت في التعمير وإعادة البناء... ولما مضت أيام الحداد ورُمّت البيوت وأغلقت عليها أبوابها مرة أخرى.. اجتمع أهل المدينة في عرس جماعي سعيد ومهيّب في ذات الوقت... قرر المسلمون فيها ألا يجعلوا فتاة أو امرأة بلا بعل يحميها... وعلمت كل فتاة وامرأة أن في التعداد فائدة لها ولأولادها ولأخواتها البنات ولمجتمعها ولأمتها المسلمة كلها.. وإلا فما سمح الله تعالى به ورغبنا فيه رسول الله ﷺ.

أصبح للرجل فى المدينة زوجتان وثلاث وأربع... ولم تعد فى المدينة كلها فتاة واحدة لا تجد زوجاً.

عمل الرجال كلهم مع مهاب فى منجم الذهب واستخرجوا ذهباً بارك الله لهم فيه... وعادت المدينة أبهى من سابقتها وعاشت من جديد فى ثراء ونعيم.. وتزوج مهاب من امرأتين وكلما تعب من الغيرة بينهما عاد لسنة الرسول ﷺ وتعلم منها كيف يحيا مع أكثر من زوجة فى وئام وسلام وسعاد... وبدأ أمر عجيب، أن الأرحام عادت تقذف المدينة بالأولاد من الذكور.. وأصبح الأمر طبيعياً.. خرجت من المدينة بعد أن قضيت فيها أكبر فترة قضيتها فى مغامرة من قبل.. ولم يشأ أحد أن أخرج منها.. وودعونى وهم يذرفون الدموع... أما مهاب فأعطانى جوهرة كانت عزيزة لديه تذكراً من هذه المدينة.

تمت بحمد الله تعالى

